مجلة الآداب، م٢٩، ع٢، ص ص ١٤٧-١٧٠ جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٧/ ١٤٣٨هـ)

وظائف (العنونة) في ديوان الأطفال
(كلمات خضر) للشاعر سليمان العيسى (جزء الأناشيد)

منى بنت محمد بن صالح الغامدي

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الدمام

(قدم للنشر في ١٨/ ٤/ ١٤٣٧هـ، وقبل للنشر في ٢٩/ ١١/ ١٤٣٧هـ)

الكلمات المفتاحية : سيميائية العنوان، سليمان العيسى، العنونة في أدب لأطفال، وظائف العنونة، ديوان كلمات خضر، أناشيد الأطفال.

ملخص البحث: دأبت الأصوات المهتمة بالطفولة في العصر الحديث على المناداة بالارتقاء بذائقة الطفل في كل ما يوجه إليه من أضرب الخطاب وأشكال الاتصال ووسائطه؛ ومنها أدب الأطفال الذي هو أحوج إلى أنْ تكون عملية الغربلة لمحتواه والتقييم لخطاباته وأشكال التعبير غير بعيدة عن التزود بكل ما يطرأ على ساحة المشهد النقدي من اتجاهات ونظريات، شرط ألَّا تقوض جدتها وحداثتها الأساس الذي يستقيم عليه بناء أدب الأطفال، ألا وهو التلاؤم مع مستويات الطفولة المرحلية، والتناسب مع قدراتها الذهنية وطبيعتها الانفعالية، ومقاربة حاجاتها النفسية؛ ومن هذا المنطلق استقامت أُطر هذه الدراسة على المنهج التحليلي في تقييم أنموذج لإحدى العتبات النصية، بالكشف عن السمات الوظيفية في (عنونة) قصائد ديوان الأطفال (كلمات خضر) للشاعر السوري (سليمان العيسى).

وتبنت الدراسة الرأي الذي ينظر إلى العنوان على أنَّه نص مواز للنص الرئيس، فقياس الفاعلية الوظيفية للعنونة ستكون بمعزل عن تأثيرات النص الأصلي، وهو عزل لا يؤذن باجتثاث أواصر القربى بالنص الأم، بقدر ما هو طلب لتمام سبك العنونة؛ ممَّا يؤهلها لأداء وظائفها دون اتكاء على تفسيرات النص الأصلي أو لجوء إلى إضاءة منه.

Titling Functions in Collections of Children,s Poetry (Kalemat Khodhur) by Souliman Alessa Songs

Mona Mohammed Saleh Alghamdi
Assistant Professor Arabic, language and and Literature Arabic, language and Literature
Department College of Arts, University of Dammam

(Received 18/4/1437H; Accepted for publication 29/11/1437H)

Keywords: the children's literature, Green Words " Kalemat Khudr, Suleiman Al Essa, Titling, Paratexte, Seuils.

Abstract: The votes interested in childhood issues in modern era has consistently calling and advocating for upgrading and improving the sense of the child in everything that is brought to him of discourse types and forms of communication ; including children's literature, which its content is in dire need to be screened and filtered and assessing and evaluating its rhetoric and forms of expression shall be made and done without being away from the trends and theories of the critical scene, provided it does not undermine its timeliness and modernity which constitute the basis on which the children's literature is built correct foundation on which to build the children's literature, namely compatibility with childhood interim levels; namely , compatibility with childhood interim levels , and consistency with its mental capabilities and emotional nature , and approximation of its psychological needs ; and from this point , the analytical method was used in this study to evaluate a model of one of the thresholds of literary texts , by revealing the functional features in (titling) the children poems book (Green Words " Kalemat Khudr ") for the Syrian poet (Suleiman Al Essa).

The study adopted the opinion which sees the title as a text parallel to the main text ; as measuring the functional efficiency of the titling will be in isolation from the original text effects , and such isolation do not authorize rooting out the bonds of kinship in the mother (main) text , but it is a request for full casting of the titling ; thus positioned to perform its functions without lean on the interpretations of the original text or resort to illustration from it.

المقدمـــة

يشكل (العنوان) مطلبًا أساسيًا لا يستقيم دونه بناء النص العام، وهو الخطوة الأولى في عملية التواصل مع المتلقي، بل إنَّه يجسد أعلى درجات التكثيف اللغوي مقارنة بعتبات النص الأخرى؛ لذلك نرى الشعراء يجتهدون في تسمية دواوينهم ويجهدون في التفنن في عنونتها.

ولا جدال في أنَّ الشعر العربي قد ارتضى لقصائده أنْ تخرج في المشهد الإبداعي عارية من العناوين والتسميات ردحًا طويلًا من الزمن، إلَّا ما كان من محاولات يتيمة لم تُحتذَ أو تقتفَ أو يؤسس عليها، ابتدرها الشاعر (أبو العلاء المعري) في بعض دواوينه (كسقط الزند)، مثلًا.

ولـمَّا ولج العرب عصر التدوين حاولوا أنْ يبرزوا أهمية التدوين والتصنيف؛ فعمدوا إلى الدواوين والمجاميع الشعرية يصنفونها وَفْقَ شعرائها، لتظهر لنا دواوين لا تحمل من أثر العنونة ووظيفتها إلَّا الوقوف بها عند حدِّ التعيين، كقولهم: (ديوان امرئ القيس)، و(ديوان أبي تمام) و(ديوان المتنبي)...، ثم اتجهوا إلى ترتيب القصائد اعتدادًا بحرف الروي، فصاروا يقولون: (دالية طرفة)، (وبائية أبي تمام)...، وتطورت بعدها التسمية ليُشغل العنوان بمطلع القصيدة.

وفي العصر الحديث تطورت ظاهرة العنونة عبر ما تلاحق من تجديد في تدوين الشعر العربي، من جراء التأثر بالنماذج العالمية في الآداب كنتيجة حتمية لتلاقح الثقافات وتسايرها، فتولَّدت عناوين متعددة المستويات والدلالات ذات صلات بتجارب الذات أو ضغط قصائد المناسبات أو وضع العصر واتجاهه الثقافي والفكري والفني.

ولا ينفصل أدب الأطفال عمَّا تآزر وتلاحم من عوامل وتأثيرات في تشكيل صفحة الأدب العام ومشهد الإبداع فيه، فإذا كان الشعر العربي قد عاني من إغفال العنونة والتسمية لقصائده، فإنَّ العنونة في أدب الأطفال ليست مشكلته الوحيدة –وإنْ كانت ذات تأثير في استقطاب ذهن الطفل ووجدانه –حيث عانى أدب الطفل من معضلات جسيمة ومشكلات عدة منها: عدم استقلاليته عن أدب الكبار، والخلط في تحديد مفهومه، وقلة التأليف فيه، وعدم مناسبة نصوصه لقدرات الطفولة واهتماماتها، فضلًا عن سيطرة النظم.

ولعل تلاقح الثقافات الذي كوَّن ملامح النهضة في العصر الحديث هو ما عزَّز من مكانة أدب الأطفال ووهبه استقلالًا وكيانًا أدبيًّا خاصة به، جعله ينهض بإزاء أدب الكبار، حين عاد مثقفو العربية بخبرات وثقافات أجنبية مكَّنتهم من الاطِّلاع على أدب الأطفال في الثقافات الأخرى –ولاسيما الأوروبي منها – ومبلغ التطور الذي بلغه، والتأليف المستقل الذي رسم ملامحه، فساعد على نموه وحدَّد مساره في

أوروبا، فأخذت الحمية المثقفين العرب إلى إنشاء دواوين وقصص موجهة للأطفال على غرار ما شاهدوا.

فأدب الأطفال لا يختلف عن الأدب الموجَّه إلى الكبار، ولا يمكن أنْ يكون بمعزلٍ عمَّا يتعاور الأدب من دراسات نقدية حديثة، فهو في المقام الأول نص أدبي يتوافر له من جمال الأساليب والأفكار ما ينال الأدب بوجه عام، ولا يختلف إلَّا في خصيصة لا تشذ به بل تميزه وتفرده، وهي تناسُب ما فيه – من قوة وجودة وجمال – مع الطفولة، مع مداركها وحواسها واستعداداتها وقدراتها، ومن هنا جاءت فكرة النظر في عنونة مؤلفات أدب الأطفال من زوايا نقدية حديثة، كانت السيميائية أحدها.

وقد استقامت أطر هذه الدراسة على المنهج التحليلي في تقييم أنموذج لإحدى العتبات النصية، بالبحث في السمات الوظيفية في (عنونة) قصائد ديوان الأطفال (كلمات خضر) للشاعر السوري (سليمان العيسى).

واستندت الدراسة إلى الرأي الذي ينظر إلى العنوان على أنَّه نص مواز للنص الرئيس، فقياس الفاعلية الوظيفية للعنونة ستكون بمعزل عن تأثيرات النص الأصلي، ممَّا يؤهلها لأداء وظائفها دون اتكاء على تفسيرات النص الأصلي أو لجوء إلى إضاءة منه.

العنونة وأدب الأطفال

أولت السيموطيقا اهتمامًا جليًا (بالعنوان)، وهو اهتمام لا يمكن أنْ يوسم بالاعتباط، أو أنَّه من قبيل الصدفة، فكما أنَّ سياق الموقف الكلامي تكفل بسد مسد العنوان؛ فكذلك سياقات اللغة المكتوبة تحتم توافر علامات تسد مسدها وعتبات تنهض بمهامها.

وليس العنوان عنصرًا طفيليًّا على النص « إنـَّما هو عتبة أولى من عتبات النص، وعنصر مهم في تشكيل الدلالة، وتفكيك الدوال الرمزية، وإيضاح الخارج قصد إضاءة الداخل» (قطوس، ٢٠٠١م. صفحة ٥٣).

ويُلحظ على المهتمين بالعنوان أنَّ اشتغالهم عليه سلك منهجين دلاليين: أولهما لُغوي، والآخر سيميائي أيقوني، اتضح الأول في دراسة العنوان، إمَّا بوصفه بنية جزئية لا تنفك عن بنية كلية هي النص الإبداعي، وإمَّا بكونه بنية مستقلة، والآخر يُنظر إلى العنوان على أنَّه نص (مواز) للنص الرئيس، أو أنَّه من أهم عناصر المناص التأليفي (النص الموازي).

وعتبة العنوان –بوصفها أحد عناصر النص الموازي أو هو نص مواز بحدِّ ذاته – يشير (جيرار جينيت) إلى أنَّـها ما يمنح النص الأساسي هويته واختلافه بمكنوناته المتنوعة: العنوان الرئيس، العنوان الفرعي، العناوين الداخلية، اسم المؤلف، الغلاف، الإهداء، المقدمة، الخاتمة، كلمة الناشر، وغير ذلك من

العناصر النصية الموازية (بلعابد، ٢٠٠٧م. صفحة ٤٨)، وهو – أي: العنوان – كما يصفه لوي هويك – صاحب كتاب سمة العنوان – بقوله: «مجموع العلامات اللسانية التي يمكن أنْ ترسم على نصٍّ ما، من أجل تعيينه، ومن أجل أنْ تشير إلى المحتوى العام، وأيضًا من أجل جذب القارئ» (حسين، ٢٠١٣م. الصفحات ١-٢)، و كشف تعريف هويك عن الوظيفة التي رآها في العنوان متمثلة في قدرته على تعيين المضمون العام- فكرة النص – وتحديده وجذب الجمهور المستهدف.

ومن المهتمين كذلك من العرب (جميل الحمداوي) – الذي تشبث بفكرة مفادها: إنَّ العنوان لا يمكن إلَّا أن يكون الأصل والنصّ فرعًا عنه، ففي نظره، أنَّ العنوان يعكس النص في تضاريسه السطحية والعميقة؛ ومن ثَمَّ فالعنوان عنده وعند مَنْ يرى رأيه « هو الذي يسم النص، ويعينه، ويصفه، ويثبته، ويؤكده، ويعلن مشروعيته القرائية، وهو الذي يحقق للنص كذلك اتساقه، وانسجامه وتشاكله » (حمداوي، ١٩٩٧م. صفحة ٧٩)، غير أنَّ (عبدالله الغذامي) في كتابه (الخطيئة والتكفير) يميل عن هذا الرأي إذ يرى أنَّ القصيدة ليست هي التي تتولد من عنوانها، إنَّما العنوان الذي يتولَّد منها، وما من شاعر حقٍّ إلَّا ويكون العنوان لديه آخر الحركات (الغذامي، ١٩٨٥م. صفحة ٢٦١)، ويبرز رأي ثالث (لرحيم عبد القادر) يحاول منه أن يجمع ما فرق هذا الاختلاف بإلقاء التبعية على الوجهة اللغوية، ويغير البوصلة باتجاه القارئ لا المبدع، فإذا كان العنوان آخر أعمَّال المبدع فهو أولى عتبات القارئ المتلقي. (عبدالقادر، ٢٠٠٨ م. صفحة ٩٦).

والاشتغال بدراسة سيميائية العنوان ووظائفه في النص الموجه إلى الأطفال لا يقل أهمية عن تلك الدراسات النقدية والسيميائية المتجهة إلى أدب الكبار، فالاعتبار بالمتلقي لتحديد الأصلية في ثنائية (النص والعنوان) أمر بالغ الأهمية في نصوص أدب الأطفال على وجه الخصوص الشعري منها، وهو ما يُلزم بتحديد الإطار السيميائي الذي ترتسم خلاله دراسة عنونة قصائد الأطفال، وعلى أساس من ذلك تتبلور وظائف العنوان وتنحصر أنماطها.

وأدب الأطفال بالدرجة الأولى نصٌّ إبداعي أفاضت (القصدية والإرادة) على جمالية الإبداع وجودة التأليف خصوصية، وألزمته باشتراطات تتلاءم مع طبيعة الطفل المتلقي؛ فالعنوان في القصائد الموجهة إلى الأطفال -سواء نظرت إليه الدراسة السيميائية على أنَّه من عناصر النص الموازي للنص الرئيس أو على أنَّه نصٌّ موازٍ بحدِّ ذاته للنص الرئيس- يحمل في الحالين تكثيفات فكرية وأبعادًا وجدانية تجتهد في المقام الأول لإجراء تناسب مع العمر الزمني والعقلي والوجداني واللغوي للطفل المتلقي.

و تتأتى أهمية العنوان في أدب الأطفال من بعض الوجوه من أهمية نصوصه؛ فإذا كان دارسو أدب الأطفال يرون «من الضروري أنْ يكشف كل نشيد عن فكرة أو جانب من جوانب الجمال في الحياة والطبيعة» (الهيتي، ١٩٧٧م. صفحة ٢١٦)، فإنَّ مفتاح هذا الكشف هو العنوان الذي أشارت (عائشة رماش) إلى أهميته في أدب الأطفال وبخاصة القصصي منه؛ وعللتْ لذلك بقولها:« لأنَّه أول ما يستقطبه ويستدعيه ويشده إلى القصة وقراءتها، وهو أول ما ينفره منها، وهذا بحسب قدرة العنوان الإعلامية والتوصيلية في الإحالة على مضمون القصة أو موضوعها» (رماش، ٢٠١٢م. صفحة ٢٣٥)، فالعنوان هو عتبة النص الأولى التي يصادفها الطفل، فإمَّا أنْ يتماهى مع هذه العتبة ويندمج بعد إدراكه لكنهها ومراد معظم لفظها؛ فيقبل على النص بوصفها مرحلة تالية أو نتيجة مباشرة، أو ينفر من هذه العتبة حين تخفق في جذبه لعجز الطفل عن إدراك مدلولها فلا يترقى إلى مرحلة تالية يعيش فيها أجواء النص.

وبهذا تختط العنونة في أدب الأطفال خصائصها وتقتبس سماتها من السمات والخصائص الواجب توافرها للنص الأصلي أو النص الموازي من نشيد أو سرد في أدب الأطفال، وتجري عليها الوظائف السيميائية للعنونة الأدبية.

وظائف العنونة في قصائد ديوان (كلمات خضر)

تُعَدُّ وظائف العنوان من المباحث المعقدة الشائكة للمناص، وقد اعتد كثيرٌ من الدارسين بالوظائف اللغوية التواصلية التي حدَّدها رومان جاكبسون للشعرية من: انفعالية، ومرجعية وانتباهية، وجمالية، وميتالغوية، واعتدوا بها سبيلًا للمقاربة، (جاكبسون، ١٩٨٨م. الصفحات ٣٢-٣٣)؛ وهو بذلك شرّع الباب على مصراعيه أمام السيميائيين للبحث في هذه الوظائف على تعقيدها واختلاف وجهات مقاربتها، ليتخذ (جيرار جينيت) هذا التحديد والتعميم للوظائف منطلقًا في دراسته التحليلية، آخذًا بجانب أيضًا ما وصف (لوي هويك) وشارل غريفل، و كلود دوشي، وهنري ميترون، ولقد خلُص جينيت إلى وصف وظائف العنونة في الحدود الآتية: التعيينية، الوصفية، الإيحائية، الإغرائية. (بلعابد، ٢٠٠٧م. الصفحات ٧٨- ٨٩).

ومع الاجتهاد في تحديد وظائف العنونة في الأطر السابقة إلَّا أنَّ هذه الوظائف قد تختزل، وقد تتسع؛ فمن الصعوبة بمكان محاولة حصر وظائف العنوان في الأعمَّال الإبداعية الفكرية شعرًا كانت أم نثرًا، وهذه هي البدهية الأكثر بروزًا وحضورًا عند الباحث في فهمه للعنونة في الإبداع، (قطوس، ٢٠٠١م. صفحة ٤٩)، إلَّا أنَّ ما وصل إليه (جينيت) من تحديد

للوظائف اعتمادًا على سابقيه هو الأكثر دورانًا في الدراسات السيميائية للعنونة.

وتمتاح العناوين في الأشعار الموجهة إلى الطفل السيميائية الوظيفية ذاتها، التي تدور في مجال الأدب والإبداع الموجَّه إلى الكبار مع النظر إلى معادلة التكيف والتوافق التي تقتضيها خصوصية أدب الطفل واشتراطاته وما قد يضفيه من أنماط وظيفية، أو يبدل في طبيعتها، وما يجتزئ منها وما قد يعمل على اتساعه، ولأنَّ هذا الامتداد للسيميائية والانسحاب إلى أدب الطفل على خصوصيته ومعاييره الدقيقة لا يتضح إلَّا بأمثلة تطبيقية فإنَّ هذه الدراسة ستتخذ من عناوين قصائد ديوان الأطفال – جزء الأناشيد – للشاعر (سليمان العيسى) مناطًا لتقييم وظائف العنونة في نصوص الشعر الموجهة للأطفال، وذلك وَفْقَ ترتيب الوظائف الآتية:

أولًا – الوظيفة التعينية.

ثانيًا – الوظيفة الوصفية.

ثالثًا – الوظيفة الاستقطابية / الجاذبة.

وقد تضمنت الوظيفة الوصفية وظيفة أخرى تنساق ضمن أنماطها، وهي الوظيفة الإيحائية التي أفردها (جينيت) بتصنيف بوصفها وظيفة مستقلة تقف بإزاء الوظائف الثلاث الأخرى، أمَّا هذه الدراسة فتعاملت معها على أنَّـها نمط من أنماط الوظيفة الوصفية، وسترد الإشارة إلى مـــبررات هذا الدمـــج أثناء الحديث عن الوظيـــفة الوصفية.

أولًا- **الوظيفة التعينية**

هذه الوظيفة تتكفل بتسمية العمل وتعرف القراء به بدقة، وبأقل ما يمكن من احتمالات اللبس، (بلعابد، ٢٠٠٧م. صفحة ٨٦)، ولهذه الوظيفة مسميات أخرى أشار إليها (جينيت) اعتمادًا على ما أشار إليه جوزيف كامبروبي، منها: الاستدعائية، التسموية، التمييزية، المرجعية. (بلعابد، ٢٠٠٧م. صفحة ٨٦).

وقد أشار (جينيت) إلى أنَّ الوظيفة التعيينية أو التعريفية هي الوحيدة الإلزامية؛ فهي لا تنفصل عن باقي الوظائف؛ لأنَّـها دائمة الحضور ومحيطة بالمعنى، (بلعابد، ٢٠٠٧م. صفحة ٨٦)، وتعامدًا على هذه الركيزة صنَّف **جينيت** هذه الوظيفة إلى ثلاثة أنماط، هي على النحو الآتي (بلعابد، ٢٠٠٧م. الصفحات ٧٩- ٨٢):

• **العناوين الموضوعاتية:**

وتنقسم إلى **عناوين أدبية** تعين الموضوع الأساسي للكتاب بلا دوران أو تصوير، وعناوين **تعتمد على المجاز المرسل والكناية** المتعلقة بموضوع لا يتركز فيه الحديث كثيرًا، وأحيانًا يكون تداوله هامشيًا، وعناوين **ذات ترتيب بنائي رمزي**، وعناوين **توظف الجمل المضادة**، وهذا لما يكون العنوان يحمل أطروحة مضادة للكتاب أو العمل.

• **العناوين الخبرية / الإخبارية:**

تتحدد من خلالها **الأجناس** التي تنخرط فيها النصوص، مثل: (الأوديسا، خرافة)، ومنها العنوانات التي تبرز **أجناس مخترعة** مثل: (تأملات، هارمونيات)، كما أنَّ منها عناوين **خبرية تعليقية** ابتعدتْ عن التصنيف التجنيسي لتعين العمل بشكله المحض مثل: (مغامرات الفرسان، كتاب الجمعة).

• **العناوين المختلطة:**

تَجمعُ مابين النمطين السابقين، مثل: (بحث في الطبيعة الإنسانية، دراسة في المرأة)، ولقد اختار الشاعر (سليمان العيسى)، **(كلمات خضر للأطفال)** عنوانًا لديوانه الموجَّه للأطفال، والوظيفة الأبرز لأي عنوان، هي التعيينة التي تكسبه هوية وتفردًا عن المؤلفات الأخرى، ويمكن أنْ ينساق نمط هذه الوظيفة ضمن ما حدده **جينيت** بالمختلطة في تأليفها بين الموضوعاتية والإخبارية، وبدقة أكثر في جمعها بين استعارة اللون وبين التجنيس التصنيفي.

وجرت عادة الشاعر العيسى على تعيين عناوين لمؤلفاته الموجهة للطفل تكون مجلية للمحتوى من الناحية الإخبارية ودالة عليه[1]، فينبئ عن القالب أو التصنيف الجنسي أو الشعري؛ بما يورده من إشارات لفظية، كمثل: ديوان أو أناشيد أو أغاني...وغيرها، أمَّا هذا العنوان- قيد الدراسة- (**كلمات خضر للأطفال)** فالكلمة الأول منه، وهي (كلمات) فلعلها تَحْلِلَه موضعًا أكثر قربًا للعمومية وأكثر نأيًا به عن التحديد والتجنيس، والحق أنَّ أدب الأطفال لا يرجح مثل هذه العموميات والأفكار غير المحددة، فهو أدب لا يستند فكره ومضمونه إلى مجرد الموهبة والتمكن اللغوي البلاغي على أهميتهما، فهو إبداع لكنَّه أيضًا معرفة بحال الطفل وقدراته، يستل معرفته من علم نفس الطفل وتربيته، فالإلهام رديف المعايير فيه.

وتلك العمومية التي صبغتْ مفردة (كلمات) - أولى تباشير العتبة في الديوان- لها بعض عذر فلربما أنَّ الشاعر العيسى رأى في هذه العمومية تآلفًا مع ما قد يُلحظ من تعدد القوالب الشعرية وأنواعها في الديوان، إذ ضمَ هذا الديوان أناشيد وقصائد ومسلسلات، وهو تعدد يمهد لانسياب الديوان في ثلاثة أجزاء أو اتجاهات، إلَّا أنَّ العناوين الفرعية التي ذيلت الصفحات السابقة لكل جزء من الأجزاء الثلاث اضطلعتْ بدور التعيين الإخباري، والكشف عن التصنيف التجنيسي على وجه الدقة، فجاءت العناوين الفرعية على هذا النحو: الأناشيد- شعراؤنا يقدمون

(١) من مؤلفات الشاعر سليمان العيسى للأطفال: مسرحيات غنائية للأطفال، القطار الأخضر (مسلسل شعري غنائي)، أحكي لكم طفولتي يا صغار (مسلسل شعري غنائي)، الشيخ والقمر(مسرحية شعرية =

= للصغار)، مازالوا الواحة (مجموعة أناشيد للصغار)، قصائد للأطفال، كتاب الأناشيد، أغاني الحكايات.

أنفسهم للأطفال- أحكي لكم طفولتي يا صغار مسلسل شعري غنائي للأطفال.

وحقيقة الأمر أنَّ الطفل يظل إلى أواخر سنوات الطور المتوسط من الطفولة غير مدرك للقوالب الشعرية ولا يميز- تمييزًا دقيقًا- الفروق الشكلية بينها؛ إذ إنَّ ما يعنيه في الدرجة الأولى هو إدراك مضمون النص الكلي أولًا، ثم الجزئي والتفاعل مع أجوائه الحيوية والحركية والإيقاعية حتى يبلغ مرحلة الطفولة المتأخرة، فيصبح أكثر قدرة على التمييز بين الأنواع، وعلى التفاعل مع المسرحيات والموازنة بين تعبير وآخر مرادف له. (الهيتي، ١٩٧٧م. صفحة ٤٣؛ قناوي، ١٩٩٤م. صفحة ١٤١).

وقد تجلى في عنوان العيسى (**كلمات خُضر للأطفال**) النمط الموضوعاتي من خلال المسند اللغوي (خُضر) إذ استعار للكلمة الأولى في العنوان (كلمات) اللون الأخضر، وتوظيف الشاعر لهذا اللون لم يكن من أجل التعيين والتمييز؛ فقد تكرر استخدامه لهذا اللون في عناوين دواوينه الأخرى، أو في قصائد ضمن دواوينه؛ فالوظيفة الوصفية بنمطها الإيحائي هي المسيطرة على هذا اللون، بيدَ أنَّ صيرورته مسندًا للمسند إليه – كلمات – هو ما حقق له صفة التفرد وميزه بالوظيفة التعيينية ضمن تركيب لغوي متكامل.

والوظيفة التعيينية للعناوين في أدب الأطفال لا بدَّ أنْ تتساير مع أدب الأطفال في خصوصيته، وتتفرد بمزية التآلف والتماثل مع طبيعة المخاطب - الطفل- فلا تجمُد أنماط التعيينات عند حدِّ الموضوع أو الإخبار أو الخلط بينهما، إذْ من الممكن أنْ ينضم إليها نمط آخر آت من مبدأ (القصدية أو الإرادة) في توجيه النص إلى الأطفال لا الكبار، وقد يلائمه أنْ نطلق عليه مسمَّى القصدية أو النمط القصدي للوظيفة التعيينية؛ وذلك عبر التصريح المباشر بالفئة العمرية- من مراحل الطفولة- المقصودة بالخطاب في العمل أو النص سواء في العنوان الرئيس أم في العنوان الفرعي، وبدا ذلك جليًا في ديوان سليمان العيسى(**كلمات خضر للأطفال**) حينما صرح بالمخاطبين بهذا العمل، وهم الأطفال في عنوانه، وهو نمط شائع في مؤلفات الأطفال، ففي دراسة أجراها (حسن شحاته) وجد أنَّ عناوين قصص الأطفال تدور حول الأطفال أكثر من دورانها حول الحيوانات والطيور والنباتات. (شحاته، ١٩٩٢م. صفحة ٧٦).

وحين نعرض مبدأ (القصدية للوظيفة التعيينية في العناوين الموجهة للطفل) على ميزان أدب الطفل ونقده، فإنَّ الأمر يتخذ منحيين:

أولهما / أنَّ الكفة ترجّح مجانبة مثل هذه التصريحات المباشرة في تركيبة العناوين الرئيسة للدواوين والقصص والمسرحيات التي توجِّه الخطاب إلى الطفل، فهذه القصدية قد تشعر الطفل بالانفصام عن عالم الكبار الذي يطمح أنْ يكون جزءًا منه؛ فهو يريد أنْ

يشعر بقوته وتفوقه مع ما يحسه من ضآلة في جسده، فإنْ كان لا مناص من استخدام مثل هذه الإشارات إلى عمره وطفولته في العناوين – على سبيل التعيين– فالأنسب أنْ يكون موضعها في عنوان فرعي أصغر حجمًا من العنوان الرئيس كي لا يكون في موقع الجذب الأول لانتباه الطفل؛ فتتكون لديه ردة فعل منفرة منذ البداية، والوهلة الأولى.

والمنحى الآخر/ يتعلق بعمومية الخطاب للأطفال في تركيبة العنوان سواء أكان الرئيس أم الفرعي دونما تخصيص مرحلة بعينها من الطفولة؛ وهو ما يتعارض بشدة مع توجهات أدب الأطفال عند الدارسين والنقاد، فتحديد الفئة العمرية أو المرحلة السنية الموجه إليها الخطاب من أولويات التأليف في أدب الأطفال، فكما هو معلوم بأنَّ مراحل الطفولة خمس مراحل: مرحلة المهد، مرحلة الطفولة المبكرة، مرحلة الطفولة المتوسطة، مرحلة الطفولة المتأخرة؛ وتنهض كل مرحلة بخصائص نمو جسدية وعقلية ووجدانية وحسية تنعكس على الأدب المناسب لها، والاكتفاء بالإشارة إلى مناسبة الديوان للأطفال، أو تخصيصه لمرحلة الطفولة عامة من دون تحديد المرحلة العمرية أو السنية من الطفولة تجعل الديوان متاحًا لأعمَّار الطفولة كلها – وهو واقع الديوان– فقد يضم بين دفتيه نصوصًا متنوعة في مناسبتها لمراحل الطفولة، فيرد في الديوان أناشيد وقصائد منها ما يناسب مرحلة الطفولة المتأخرة، ومنها ما يناسب مرحلة الطفولة المبكرة، وبعضها نُظم للمرحلة المتوسطة؛ وهذه ليست أمارة جودة وإبداع، فهل سيقرأ الطفل الديوان بكامله، ما خُصِّص له وما هو فوق مستواه؟ حيث يفترض أن يستمتع الطفل بعمل أدبي مخصوص بتأليفه، يخاطب ميوله واستعداداته، أمَّا التعويل في – هذا المكان– على الاكتفاء بالانفعال العام الإيجابي وتقبّل فكرة النص، أو الارتقاء بمستوى الطفل إلى مستو أعلى، فهو تبرير يمكن السكوت عنه مع طفل المرحلة الأدنى الذي يقرأ القصيدة أو الأنشودة الموجهة لسن أكبر من سنه، لكن المشكلة تكمن في تقبل الطفل الأكبر سنًا لمـَّا ألف في أساسه لمن هم أصغر منه عمرًا فبدهي أنْ ينظر إلى النص نظرة استخفاف وعدم اكتراث.

من هنا يتعين في أدب الأطفال أنْ يستقل نظم الديوان الشعري أو الخطاب السردي بفئة عمرية بعينها من الطفولة، يصرح المؤلف بذلك في عنوان فرعي على الغلاف لتتحقق حينها الوظيفة التعيينية للعنوان، وبالمقابل يستغنى عن العناوين الفرعية المتوالية بين أجزاء الديوان.

والوظيفة التعينية للعنوان صفة لازمة لعناوين القصائد، فهي تُحدِّد معالمها وتميز بعضها من بعض، وتسم فكر المؤلف بالإبداع والاتساع، واقتدار الشاعر في تحقيق هذه السمة التعيينة للعنوان منوط باللفظ هنا،

فقد تتماثل بعض ألفاظ عناوين القصائد، لكنَّها تتباين في مواطن الجذب والإيحاء والوصف، من مثل: (الطفل الرسام) و(الرسام الصغير)، (بيتي) و(يا بيتنا الثاني). (العيسى، ٢٠٠٥م. صفحة ٢١،٢٥، ٥٢، ٦٠).

وتتجاور الوظيفة التعيينية مع الوظائف الأخرى من: وصفية - بنمطيها التفسيري والإيحائي - أو جاذبة إغرائية، إلَّا أنَّـها تغلب على بعض العناوين وتتسيد حين يضمحل حيز الوظائف الأخرى وتقل هيمنتها، فكانت الغالبة على بعض عناوين الأناشيد في ديوان (كلمات خضر)، مثل:(الشجرة، أمي، المطر، العيد، الشتاء، الثلج، الربيع، الخريف، الصيف، الكره، الهرة، بيتي)، (العيسى، ٢٠٠٥م. صفحة ٢٠، ٣٧، ٣٨، ٤١، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٨، ٥٠، ٥٢)، فقد تميزتْ بنهوضها على ما تبعثه الكلمة المفردة من دلالات وإيحاءات.

ولا مراء إنْ قلنا بأنَّ العناوين السابقة لم تُمنح قدرًا كافيًا من الاهتمام في الإنشاء والتأليف سواء من فيما له شأن بأدب الأطفال واهتمامه بالحيوية والجاذبية والحركة، أو ماله شأن بجمالية أدبية لازمة للشعر، إلَّا أنَّ النصوص التي تتربع عليها تزخر بتشكيل لُغوي مكتظ بألوان المرح والحيوية والجمال التي تجذب الطفل وتلفت انتباهه؛ فعلى سبيل المثال عنوان الأنشودة (الشجرة)، فالشجرة من الموضوعات التي تتناسب مع طبيعة اهتمام الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة، إذْ يحاول الطفل في هذه المرحلة التعرف على البيئة المحيطة، (زهران، ٢٠٠٣م. صفحة ١٩٢)، ويستخدم حواسه لاختبار البيئة المحدودة المحيطة به في المنزل والحديقة والشارع والمدرسة (قناوي، ١٩٩٤م. صفحة ١٥٠)،كما أنَّ النصوص المناسبة لأطفال هذا الطور ينبغي أنْ يخالط أسلوبها الحركة والحيوية والمرح حتى يعيش الطفل حالات من الانفعال تجذبه إلى النص وتجعله يتفاعل معه.

لكن عنوان مثل (الشجرة)، (العيسى، ٢٠٠٥م. صفحة ٢٠) اكتفى بالوقوف عند حدِّ تمييز النص عن النصوص الأخرى ولم يتعداها، وهو تمييز يقوم على الموضوعاتية الأدبية حيث يُعني بتفسير الموضوع وحسب، فيلقي بالظلال على أهمية الشجرة، والأمر كذلك بالنسبة لقصيدة (الهرة)، (العيسى، ٢٠٠٥م. صفحة ٥٠)، فالهرة من الحيوانات المستأنسة القريبة من الطفل في المرحلة المبكرة، يهوى ملاعبتها والتسلي معها، فالطفل في طور الطفولة المبكرة «يرى حوله حيوانات تتحرك، ولها خصائص مميزة، وألوان متشابهة وغير متشابهة، وتصدر عنها أصوات متفاوتة» (الحديدي، ١٩٩٢م. صفحة ١٧٣)، ويجب أنْ تكون بينه وبينها تجارب من اللعب والحركة والإطعام، إلَّا أنَّ العنوان جاء جامدًا خاليًا من هذه العوامل الجاذبة، مع ما يضطرب في النص من ألوان الحركة واللعب

التي تستقيم على مبدأ الفعل وردة الفعل المتبادلة بين الطفل والهرة؛ ولا يمكن تفسير ذلك بعدم إنصاف الشاعر النص، فالشاعر نفسه صنع للأطفال أشعارًا جميلة تجذبهم، وتتناغم مع ميولهم واستعداداتهم، لكنَّه لم يهتم بأنْ يصنع لنصوصه عناوين تمتاح الجمال والجاذبية نفسها، ولعلَّه استند على طاقات النص وحدها في إحداث تلك الحيوية والجاذبية، إلَّا أنَّ ذلك لا يكفي في أدب الأطفال، فجاذبية العنوان وقدرته على الإيحاء عامل مهم في جذب انتباه الطفل والاستئثار بفكره وبوجدانه ولاسيما أنَّ انتباه الطفل عرضة للتشتت (زهران، ٢٠٠٣م. صفحة ٢٤٥)، ومن الصعب لفت انتباهه واستقطابه إلَّا بحشد عوامل جاذبة عدة في النص؛ ومن هنا يمكن القول أنَّ الحضور الدائم للوظيفة التعيينية للعناوين يشير إلى اضمحلال دور الوظائف الأخرى؛ وهو أمر لا ينتهي في صالح الطفل المتلقي، والحال السابقة يمكن تعميمها على ما ذكر آنفًا من عناوين مفردة.

أمَّا العناوين التي تشير إلى فصول السنة وهي: (الشتاء، الربيع، الصيف، الخريف) فتبدو قيمتها التعيينية في إفراد كل فصل من فصول السنة بأنشودة تمثله وتوضح مظاهره، ليسهل عليه التفريق بين مظاهرها «وبما أنَّ الطفل ينفتح على الحياة خارج بيئته الأسرية فإنَّه يحب الموضوعات التي تصف بيئته الكبيرة، ومن هذه الموضوعات الوصفية التي يميل إليها..وصف الحدائق التي يجري ويلعب فيها... » (قناوي، ٢٠٠٥م. صفحة ١٠٨)، والطفل بحاجة للتميز بينها من خلال نص مستقل لكل فصل، فهذه العناوين أدَّتْ وظيفتها المنوطة بها وهي تمييز كل فصل وتعيينه.

وفي إطار الوظيفة التعيينية تجدر الإشارة إلى ما سبق وذكره (جرار جينيت) من أنَّ بعض العناوين التعيينية تعتمد النمط الموضوعاتي الذي يصوب اتجاهه نحو موضوع النص وفكرته العامة، وبدا ذلك جليًا في عناوين القصائد الآتية: (أزرع ليأكلوا، اكتب كلمة، لجبهة الفلاح)، فكل عنوان منها ما هو إلَّا سطر شعري أو شطر شعري ورد ضمن الأنشودة، وكأنَّ الشاعر- في هذه الأناشيد الثلاثة - ينتخب لأنشودته أكثر أفكار النص جاذبية ليرشحها عنوانًا، ولم يخلُ هذا الانتخاب من رتابة ونثرية تتضاد وطبيعة الشعر الموحية، كما في العنوان (أزرع لتأكلوا) على النقيض تمامًا ممَّا نجده من أنماط الإيحاء والغموض النسبي المشوق في العنوانين (اكتب كلمة، لجبهة الفلاح)، (العيسى، ٢٠٠٥م. صفحة ٥٩، ٣٥، ٢٤).[1]، والعكس هو الصحيح مع عنوان الأنشودة(الغناء) فعلى الرغم ممَّا تثيره فتجربة (الغناء) من جاذبية وحركة قد تسعد الأطفال، إلَّا

(١) ستأتي الإشارة إلى ما يكتنف العنوانين من نمط إيحائي وصفي في ص: ١٩-٢٠ من هذه البحث.

أنَّ ورده بهذه الصيغة المجردة يقف بوجه مثل هذا التفاعل ويحد منه، فتجربة الغناء تتوافق مع الطبيعة الحيوية للطفولة وعادة ما ترد في سياق اللهو والحركة في أدب الأطفال، وبالنظر في نص النشيد نجد أنَّ العيسى حرص على أنْ يصيغها على لسان الطفل في لازمة شعرية كررها أربع مرات في مقاطع النشيد، في قوله على لسان الطفل: دعوني أغني، وإني أغني، وبصياغة تجربة الغناء في هذا المصدر المجرد تنحصر مهمة العنونة فيه في التعيين الموضوعي.

وبقدر ما في ديوان العيسى من عنونة اتخذتْ من صفتها التعيينة مسلكًا لوضع فروق بين أجزاء يجمعها كلٌّ متكامل، كفصل الشتاء أو فصل الربيع بالنسبة لعموم فصول السنة، فإنَّ العيسى يختار لعناوينه ما يمكن من خلاله العمل على تعيين التعيين ذاته أو تمييزه باتخاذ سمة من سمات هذا الفصل وجعله عنوانًا لأنشودة مستقلة من مثل: الثلج، المطر، وهو مسلك يتناسب مع اهتمامات الطفولة في سنوات مرحلتها المتوسطة.

ونهوض نص مستقل بمثل هذه المظاهر الجميلة في الطبيعة لا ريب في أنَّه تطبيق لنمط التعيين الوظيفي وتجسيد له، لكنَّه تعيين لم يخلُ من لمحات جمال وحسن، فعنونة النص بمثل هذه التفاصيل المحسوسة المستقاة من مظاهر الطبيعة هو استقطاب لذهن الطفل من أول وهلة وفي مبتدأ تفاعله مع النص بأداة من أدوات الجمال؛ وفي هذا تدريب لذائقة الطفل على تتبع مصادر الجمال في الكون وفي الحياة والطبيعة.

ثانيًا – **الوظيفية الوصفية**

وصف (جينيت) هذه الوظيفة بأنَّـها « التي يقول العنوان عن طريقها شيئًا عن النص » (بلعابد، ٢٠٠٧م. صفحة ٨٧)، كما أنَّـها المسؤولة عن الانتقادات الموجهة للعنوان، ولا منأى عن هذه الوظيفة إذْ عدَّها (أمبرتو إيكو) مفتاحًا تأويليًا للعنوان (بلعابد، ٢٠٠٧م. صفحة ٨٧).

ولقد كثرتْ تسميات هذه الوظيفة، فمنهم من يسميها الوظيفة التلخيصية، ومنهم من أطلق عليها الوظيفة الدلالية، ومنهم مَن يصفها بالوظيفة اللغوية الواصفة (بلعابد، ٢٠٠٧م. صفحة ٨٧).

والحقيقة أنَّ وصف هذه الوظيفة للنص ومسؤوليتها عنه تغري بمزجها بالوظيفة الثالثة التي حددها (جينيت) وظيفة منفردة للعنوان تؤازر الوظائف الأخرى له، وهي الوظيفة الإيحائية، أمَّا فكرة دمج الوظيفتين الوصفية والإيحائية فذلك بناءً على أنَّ الإيحاء نمط من أنماط الوصف والتفسير يقف بإزاء: المباشرة، والدقة، والإبهام كأنماط متعددة لهذه الوظيفة البالغة الأهمية من وظائف العنونة، كما يأتي في درج هذا الانضمام والاندماج المطابقة التي أشار إليها (جينيت) حين تحدث عن الوظيفة التعيينية.

والوصفية - بتشعب أنماطها - تتسق والدور الذي يؤدِّيه العنوان في أدب الأطفال ولاسيما الأناشيد، فما يفضي به العنوان سيكون مناط الحكم في إخفاق العنوان في أداء دوره ووظيفته؛ فله – أي العنوان- أنْ يقول ما يشاء إمَّا مباشرة أو إيحاء، وقد يكون دقيقًا في قوله، وقد يتصف بالعمومية أو بالغموض، وقد يكون مطابقًا للنص، وربما يتنافر معه، فلو نظرنا إلى العنوان الأول من عناوين أناشيد العيسى(الحقل الأخضر)، (العيسى، ٢٠٠٥م. صفحة ١٩)، نلحظ أنَّ صفة الإيحاء لا تنطبق عليه، فاستعمَّال اللون هنا ليس على سبيل المجاز أو الرمز أو تغليب نقطة من الحديث، بل إنَّ استعمَّال اللون (الأخضر) ووصفه جاء متوائمًا مع الحقيقة ومقاربًا للواقع ومطابقًا له، فالحقل من لوازمه النماء الماثل في اصطباغ أوراقه وشجره وعشبه باللون الأخضر، وبهذا يكون العنوان دقيقًا في معالجته لدوره الوصفي وفي النهوض به ومباشرًا في التعبير عن مغزاه، وصفة الاخضرار الحسية تتلاءم وتفكير الطفل الذي يظل حتى مرحلة الطفولة المتوسطة يعيش في واقعه الحسي (قناوي، ١٩٩٤م. صفحة ١٣٦).

وتتجسد ملامح النمط المباشر من الوظيفة الوصفية في بعض عناوين الأناشيد من، مثل: (الأرجوحة، طائرة الورق، الغناء، أمي)، (العيسى، ٢٠٠٥م. صفحة ٢٢، ٢٣، ٢٨، ٣٧)، إضافة إلى ما سبقت إليه الإشارة من عناوين مفردة عند الحديث عن الوظيفة التعيينية، وقد لا تكون مباشرة العنوان سببًا في القدح في شاعرية شاعر كبير، مثل: العيسى، لكن المستحب في الخطاب الشعري أنْ يوحي العنوان بالمضمون إيحاء ويلمح إليه إلماحًا، فأدب الأطفال يُلزم بمثل هذه الإيحاءات والجماليات.

فعنوان (الأرجوحة) عنوان مباشر يصف للطفل لعبة يحب امتطاءها في طوري نموه المبكر والمتوسط في الغالب، والطفل في الطورين يحب كذلك أنْ تعكس النصوص الموجهة إليه هذا النشاط وحبه للتسلية؛ لذا على الشاعر أنْ يربط تجربته بتجربة الصغار وخبراتهم (شبلول، ١٩٩٦م. صفحة ٢٣٩)، وقد عبر العنوان عن هذه اللعبة بشكل مباشر، ومن جراء ذلك انحسرت عن العنوان الأساليب الجاذبة والمشوقة للأطفال في الطورين المبكر والمتوسط، وكان بإمكان الشاعر أنْ يخفف من وطأة هذه المباشرة بنسبتها، مثلًا، إلى نفسه فيكون العنوان: أرجوحتي أو أرجوحتنا؛ توافقًا مع طبيعة الأنا والذات المسيطرة على تفكير الطفل التي غالبًا ما ينعكس أثرها على لغته (صالح، ١٩٩٢م. صفحة ١٤٥)، ولقد بينت الدراسات الحديثة أنْ تلاميذ الصفوف الثلاثة الأولى من المرحلة الابتدائية يستخدمون هذا الحديث الذاتي (شحاته، ١٩٩٢م. صفحة ١٤٩)، وكان بإمكان الشاعر أيضًا أن يضفي على هذه العتبة بعض الصفات المحببة

للطفولة، كأنْ يقول: أرجوحتنا الجميلة، أو نطير في أرجوحتنا الجميلة، أو الأرجوحة المحلقة، بحيث يُوحي العنوان بألوان من الحركة والنشاط والحيوية أو يحلق بالأطفال في درجات الحسن والجمال، إذْ إنَّ من القسمات العامة للشعر المناسب للأطفال «أنْ تكشف كل مقطوعة شعرية فكرة أو جانبًا من جوانب الجمال في الحياة أو الطبيعة» (الهيتي، ١٩٧٧م. صفحة ٢١٦).

وبالمقابل لم تخلُ أناشيد (كلمات خضر للأطفال) من أضرب متعددة من أنماط الإيحاء في مثل: (أكتب كلمة، لجبهة الفلاح) التي سبقت الإشارة إليهما، فاتساع المدلول والمعنى الفكري الذي يحمله التركيب اللغوي للعنوان (أكتب كلمة) يناظره إيجاز واختزال لقصة طويلة من محاولات الكتابة وتعلمها تجشم النص وصفها وتفسيرها والإبانة عنها في إطار من اللهو والمرح المحبب للطفل، وهي تجربة وَفْقَ العنوان في نقل الطفل إلى وسطها الحيوي بما اكتنفه من إيماءات وإيحاءات ارتبطتْ ببداية مزاولة الكتابة وتعلم مهاراتها الأساسية، وقد أشار لفظ (كلمة) إلى بواكير هذه التجربة التي يبدأ الطفل بخوض تفاصيلها بشكل جدي في مبتدأ مرحلة الطفولة المتوسطة (زهران، ٢٠٠٣م. صفحة ٢٤٤)، أي: في سن الالتحاق بالمدرسة، وإنْ كانت قد سبقتها سنوات من التدريب في مرحلة الطفولة المبكرة أي: مرحلة رياض الأطفال.

فالعنوان يُومئ بالتجربة العملية الآتية من إسناد الفعل المضارع بصيغة المتكلم (أكتب) إلى المسند إليه(كلمة) وما تُوحي به (كلمة) من مستوى الكتابة، في دلالة واضحة على أنَّ الكتابة لم تبلغ مرحلة الإتقان، فلم يقل الشاعر: أكتب كلماتي أو أكتب فروضي أو واجباتي، واكتفى ببساطة اللفظة (كلمة)، ليجد فيها الطفل تناغمًا مع ما خبره مع تجربة الكتابة في الطور المتوسط من الطفولة، كما أنَّه لا يمكن التغاضي عمَّا يحيط بالكلمة من إيحاء وتصوير لا يخلو من جمال حين تعبر بمفردتها عن العمل الإبداعي ككل، وعليه يمكن القول أنَّ الإيحاء بتجربة الكتابة عبر العنوان جاء مطابقًا لاهتمامات الطفولة واستعداداتها، وهذا مدخل من مداخل الوظيفة الجاذبة أو الإغرائية.

أمَّا العنوان (لجبهة الفلاح) فتتألف تركيبته من دخول حرف الجر على لفظ (الجبهة) المسند لمهنة (الفلاحة)، وبهذا يولّد العنوان مساحة كبيرة من الدلالة، فهل يقصد الشاعر: جبهة الفلاح الحقيقية؟ – أيْ: مقدمة رأسه –كما يعرفها الطفل على الحقيقة وفي الواقع، أم يقصد: ما يتساقط من عَرق؟ أو على تقدير قبلة نظير ما يقدمه من كدّ وعمل...وغيرها، فهناك كم هائل من الإيماءات والتحليلات التي لاتحدُّ بفواصل، وهنا مناط الجاذبية التي هي سبل من سبل استقطاب ذهن الطفل.

وهذا العنوان -لجبهة الفلاح-ينشط ذهن الطفل ويجعله ينطلق في تخمينات لا حدَّ لها ويطرح تساؤلات عدة، منها: من المتكلم؟ وهل بالفعل يزرع ليأكل غيره؟ وما الذي يزرع؟... وغيرها من الأسئلة التي ترتبط بمهنة الفلاحة، وهذه الأسئلة وما تتطلبه من إجابات تتوافق مضامينها مع اهتمامات الطفل في مرحلة الطفولة المتوسطة إذْ يحب الطفل الحديث عن أعمَّال الآخرين الذين يزاولون في المجتمع مهنًا مختلفة (قناوي، ١٩٩٤م. صفحة ١٣٣).

وقد سبقت الإشارة إلى نثرية العنوان (أزرع ليأكلوا) وتخالفه في ذلك مع طبيعة الشعر الجمالية، بل لا يبتعد كثيرًا عن صور الخطاب اليومي العادي التي لا ترقى إلى جمال الشعر وما يوحي به، وهو شرك شديد الخطورة، يتعين على أدباء الأطفال الحذر منه، فالتناسب مع قدرات الطفل وميولهم واستعداداتهم واستلال الصور الواقعية لا يعني بحال من الأحوال النزول بلغة الشعر والأدب إلى لغة الخطاب اليومي، كما أنَّ الشاعر لا يسعى إلى تحقيق الحقائق والأفكار؛ وإنـَّما إلى تصويرها، وتحويلها إلى لوحات فنية شعرية، فإذا كانت نصوص (سليمان العيسى) الموجهة إلى الطفل زاخرة بأفانين الجمال، والإيحاءات التي تسعد الطفل وتملأ النص حيوية وحركة، فإنَّ عناوين قصائده لم تنل مثل هذا الاهتمام والعناية.

وتأتي بعض عناوين القصائد في ديوان (كلمات خضر للأطفال) وقد اقترنتْ فيها صفة صغر الحجم بأشياء الطفل وممتلكاته، وبدا ذلك جليًا في(مكتبتي الصغيرة، الرسام الصغير، القارئ الصغير) (العيسى، ٢٠٠٥م. صفحة ٥٦، ٢٥، ٤٧)، ومع المباشرة التي تكتنف دلالات العناوين، والحسية التي تميزها وتجعلها تتوافق مع سمة النمو المرحلي لقدرات الطفل العقلية إلَّا أنَّ إطلاق صفة صغر الحجم على ما يخص الطفل ويمتلكه أمر لا يحبذه الطفل، ولا يتفاعل مع أيَّ خطاب أدبي يسلك هذا المسلك، ولقد سلفت الإشارة إلى هذه الصفة فيما سبق، إلَّا أنَّ الشاعر العيسى تعامل مع هذا العناوين بذكاء ودراية بحيث جعلها مناط ثقة الطفل لا شعوره بالضآلة والدونية أمام الكبار، وذلك حين أسند هذا الوصف إلى الألفاظ - مكتبتي، والقارئ، والرسام - التي تتضمن دلالاتها ما هو بكفيل بتبديد مثل تلك الأفكار والتوهمات، (فمكتبتي) تدل على سعة الاطلاع ونبوغ في مهارة القراءة حين جعل الشاعر للطفل مكتبته الخاصة التي يفاخر بارتيادها، وجاءت الصفة (الصغر) مسندًا يدعم تلك الخصوصية ويثبتها، مؤيدة هذا التميز وهذه الخصوصية، والأمر كذلك بالنسبة (للقارئ الصغير والرسام الصغير)، فالرسم وإتقان القراءة حظ الكبار منهما يفوق الصغار بمراحل، وبإسناد ما جرت عليه العادة أنَّه من سمات الكبار إلى الأطفال الصغار- من

باب التخصيص والتمييز- يجعل الشعور بالنقص يتبدل إلى شعور طاغ بالثقة والتوازن النفسي، يسند ذلك شعور حب الذات وسيطرته على تفكيره.

ثالثًا- **الوظيفة الاستقطابية / الجاذبة**

هذه الوظيفة سماها (جرار جينيت): (الإغرائية)؛ إذْ يكون العنوان معها جاذبًا قارئه مـُحدثًا لديه تشويقًا وانتظارًا، وتعتمد قدرة العنوان على جذب الطفل والاستئثار بانتباهه واستقطاب تفكيره على ما يتوافر للعنوان من وسائل تجعل الطفل يقبل عليه وعلى قراءة النص، سواءٌ أكانت الوسائل أسلوبية أم فكرية موضوعية.

فالوظيفة الاستقطابية أو الجاذبة تأتي من كون العنوان يمثل اهتمامات الطفولة وميولها في كل مرحلة من مراحل الطفولة، كما في (الأرجوحة، وطائرة الورق) فكلاهما مصدر من مصادر تسلية الطفل خصوصًا في مرحلة الطفولة المتوسطة، وهي كذلك من المألوفات الحسية في البيئة القريبة، فضلًا عمَّا ارتبطتْ به في ذهن الطفل بخبرات وتجارب تفيض مرحًا وحيوية ونشاط؛ فهما وسيلتان من وسائل إدخال السرور إلى وجدان الطفل؛ وإثارة الوجدان سبيل ممهد لغرس الفكرة في ذهن الطفل وتنميتها.

والأمر كذلك بالنسبة للعنوان في (حديقة الحيوان)، فالتركيب اللغوي يُوحي بأنَّ مدار النص هو وصف للحديقة بحيواناتها وطيورها، وهي بلا شك تجربة محببة للأطفال، فالأطفال كثيرو التعلق بالحيوانات الأليفة والاهتمام بها (قناوي، ١٩٩٤م. صفحة ١٣١)، كما هو حاصل أيضًا مع النشيد (سنونو بلادي)، بل قد يتطور الأمر فيشرع الطفل في عقد ضرب من الصداقة والرفقة معها، فالطفل في مرحلة الطفولة المبكرة يسيطر عليه (خيال التوهم)؛ لذا يقبل بشغف على القصص والتمثيليات التي تتكلم فيها الحيوانات والطيور (نجيب، ١٩٩١م. صفحة ٢٩)، ورد عالم نفس الطفل (جان بياجية) ذلك التوهم إلى النزعة الإحيائية المسيطرة على تفكير الطفل[1] (يعقوب، ١٩٨٢م. صفحة ٢٠)، أمَّا (هادي الهيتي) فيفسر هذا الإقبال على الحيوان بقوله: « بما يعود ذلك إلى السهولة التي يجدها الأطفال في تقمُّص أدوار الحيوانات، وسعادتهم في تكوين صداقات مع بعض الحيوانات، فعلاقة الطفل الوجدانية أعسر على الفهم من علاقته بالإنسان، ولعل ذلك يرجع إلى أنَّ بعض الحيوانات أصغر حجمًا من الراشدين من بني الإنسان» (الهيتي، ١٩٧٧م. صفحة ١٤٨)، وربما هذا هو موطن الجذب في العنوان (رفيقي الأرنب)، إنـَّما ليس نمط الصداقة المنعقد بين الحيوان والطفل هو وحده ما يجذب الطفل في هذا العنوان على أهميته، بل تلك

(١) الإحيائية: مصطلح درج على استخدامه علماء علم النفس التكويني، ويقصدون ما تقوم به مخيلة الطفل من منح للحياة والشعور للأشياء الجامدة والمتحركة.

المقاربة اللفظية التي أبرمها الشاعر بين العنوان وبين لغة الطفل، فالمركزية الذاتية تجعل الطفل يرى نفسه محور الكون في المرحلتين المبكرة والمتوسطة، وإنْ كان في الطور المتوسط يبدأ في التقدم نحو الموضوعية شيئًا فشيئًا (زهران، ٢٠٠٣م. صفحة ٢٤٦)، ويتجلى أثر الذاتية في نسبة الطفل الأشياء إلى نفسه، ومثل هذا التقارب يجذب الطفل إلى النص ويعلق وجدانه به، فالطفل الذي يتلقى النص يردده ويغنيه وكأنَّه البطل صاحب الأغنية، ممَّا يزيد من اندماج الطفل مع النص وتفاعله مع معانيه، وهذا النمط الجاذب استوطن بعض عناوين أناشيد الديوان من مثل: (بيتي، سنونو بلادي، مكتبتي الصغيرة، فلسطين داري، عمي منصور)، وإنْ كان الأخير تتمركز جاذبيته أكثر في التصريح باسم من الأسماء المألوفة للطفل في حياته اليومية أكثر من مجرد الاكتفاء بجنس من يشير إليه النص، أو بتحديد صلة القرابة، وهذه الجاذبية تفتح الباب على مصراعيه لسيل من الإيحاءات والتوقعات التي سيَشْرَعُ الطفل في تخمينها ورسمها في مخيلته، في اجتهادِ منه للتعرف على الأفكار التي ستتوالى في نشيد (عمي منصور) والطفل في طور طفولته المتوسطة يهوى الحديث عن الأقارب في الأناشيد الموجهة إليه (قناوي، ١٩٩٤م. صفحة ١٣٣).

وقد تستند الوظيفة الجاذبة في العنونة في أدب الطفل على تناغم الإيقاع الصوتي الناجم عن تكرار بعض الحروف وبخاصة إنْ دعم هذا النمط من الجاذبية نمط آخر يضاعف من جاذبية العنوان، ويعمل على تشويق الطفل، كما في (سنونو بلادي، افتح سمسم)، فتكرار المقطع الصوتي في كلمتي (سنونو وسمسم) تكرار يعجب الطفل المغرم بفطرته ومنذ صغره بالإيقاع ورتابة الإيقاع لضعف ذاكرته السمعية (أنيس، ١٩٧٢م. صفحة ١٥)، وتكرر المقطع الصوتي ليس وحده ما يجذب الطفل في كلمة (سمسم) بل ارتباط العنوان بأمر يألفه الطفل ويحب مشاهدته، وهو البرنامج العالمي المشهور(**افتح يا سمسم**)، ومثل هذه الإشارات والإيحاءات في العناوين تـُحفِّز ذاكرة الطفل وتستأثر بانتباهه وتُثير انفعالاته، فضلًا عن أنَّ العنوان (سنونو بلادي) يجعل الحيوان أو الطير مدار حديث الطفل، والطفل يتعلق بالحيوانات والطيور ويهوى اللعب معها وصداقتها كما قد سلفت الإشارة، والمقاربة اللفظية المعتمدة على حديث الطفل الذاتي تتكرر في العنوان (فلسطين داري).

والتركيز على الدار والبيت والبلاد في العناوين ونسبتها إلى الطفل المتحدث من خلال جريانها على لسانه عنصر جذب وتشويق، لأنَّ فيها إشباعًا لحاجة الأمان والطمأنينة التي ينشدها الطفل في مختلف مراحل طفولته، فتدعيم انتمائه إلى دار وبيت يعيش فيهما في كنف أسرة محبة له تلبية لحاجة وجدانية أساسية لنمو الطفل الانفعالي وتوازنه الوجداني (زهران،

٢٠٠٣م. صفحة ٢٩٥)، فضلًا عمَّا تلقيه الإشارة إلى فلسطين جرح الأمة الإسلامية الغائر من إذكاء لحب الاستطلاع والرغبة في التعرف على المشكلات في مجتمعه المحيط أو الواسع الذي يبدأ بالاندماج به في سنوات طفولته المتأخرة (قناوي، ١٩٩٤م. صفحة ١٣٥)، وبقدر ما تضفي كلمة داري على لسان الطفل من أبعاد ذاتية تنسجم مع خصائص الطفولة فإنَّ في كلمة فلسطين توافق مع المهام التعيينية التي ينهض بها العنوان ما يجعل الحضور التعييني للعنونة هو المهين؛ فلعلَّ رغبة الطفل في الاستكشاف الدلالي للفظ فلسطين تفوق ما قد يشعر به من ألفةٍ تجاه الاستخدام الذاتي للفظ الذي جرى على لسانه.

وقدْ تأتي جاذبية العنوان من قدرته على إثارة أكثر من علامة استفهام تدفع بالطفل إلى توظيف نزعة الفضول لديه وحبّ الاستطلاع والاستكشاف لـمَا يلمسه من إبهام وعدم وضوح في بعض العناوين، إذْ لا تسعفه قلة الخبرة ومداركه المحدودة فيعجز في البداية عن الوصول إلى تفسير صحيح؛ يسبقه محاولات عدة من إعمَّال الذهن والتفكير يتناسب مع قدراته، فلا ريب في أنَّ قيمة الأفكار والحقائق في مقدرتها على توجيه الطفل نحو التفكير والتأمل والتخيل، « ومن الضروري أنْ تتوافر في أناشيد الأطفال الجاذبية التي تدعو الأطفال إلى التعلق بالأفكار والتعاطف مع الإيقاع والانفعالات المليئة بالأمل والتفاؤل من خلال الصور الذهنية والصيغ الطلبية كالاستفهام والنداء والدعاء» (الهيتي، ١٩٧٧م.صفحة ١٠١)، ويبدو ذلك في العناوين الآتية:(لجبهة الفلاح، في الأعالي، بيتنا الثاني)، فقد سلفت الإشارة إلى الطاقات الإيحائية التي يحملها العنوانان: لجبهة الفلاح، وبيتنا الثاني، وهو تداخل يجعل من الإيحاء الذي رأينا بأنَّه نمطٌ من أنماط الوظيفة الوصفية، بل هو سبيل لوفاء العنونة بالوظيفة الإغرائية، وهو تداخل محمود وبدهي، إذْ لا يـمكن الفصل التام بين مهام العنونة ووظائفها، حيث يفضي أحدهما للآخر في منظومة أدبية متصلة أو دائرة يصعب تحديد المؤثر فيها من المتأثر.

والأمر ذاته يتكرر مع العنوان (في الأعالي) فمكن جاذبيته في إثارته لكثيرٍ من الاستفهامات التي تثير فضاء واسعًا من الخيالات والتخمينات في ذهن الطفل حول تفسير المراد بـ(في الأعالي)، هل هو العلو الحسي المتمثل في تسلق الجبال والمرتفعات وما قد يرتبط بذلك من مغامرات وقصص مشوقة؟ أم هو متعلق بالمثل والفضائل العليا، وهل النص تبعًا لذل نصٌّ سردي؟ أم منظومة شعرية؟ وهكذا...، ومثل هذه الإثارات الانفعالية وحال عدم الاستقرار على حلٍّ في التفكير والتخمين تسكن وتهدأ بمجرد شروع الطفل في قراءة النص، لكنَّها ليستْ قراءة عادية، بل قراءة قد سُبِقَتْ بمحفزات عدة ووسائل جذب متنوعة، توثِّقُ العلاقة بين الطفل وما يقبل على قراءته.

البيان الإحصائي لوظائف العنونة في (ديوان كلمات خضر – جزء الأناشيد)

م	العنوان	رقم الصفحة في الديوان	الوظائف المتحققة في العنوان		
			التعيينية	الوصفية	الإغرائية
١	الحقل الأخضر	١٩		√	
٢	الشجرة	٢٠	√		
٣	الطفل الرسام	٢١	√		
٤	الأرجوحة	٢٢		√	
٥	طائرة الورق	٢٣		√	√
٦	أكتب كلمة	٢٤		√	
٧	الرسام الصغير	٢٥	√	√	
٨	في الأعالي	٢٦			√
٩	الغناء	٢٨	√	√	
١٠	فلسطين داري	٣٠			√
١١	سنونو بلادي	٣١			√
١٢	عمي منصور	٣٢			√

م	العنوان	رقم الصفحة في الديوان	الوظائف المتحققة في العنوان		
			العينية	الوصفية	الإغرائية
١٣	افتح سمسم	٣٣			√
١٤	رفيقي الأرنب	٣٤			√
١٥	لجبهة الفلاح	٣٥		√	√
١٦	أمي	٣٧	√		
١٧	المطر	٣٨	√		
١٨	العيد	٤٠	√		
١٩	الشتاء	٤١	√		
٢٠	الثلج	٤٢	√		
٢١	الربيع	٤٣	√		
٢٢	الخريف	٤٤	√		
٢٣	الصيف	٤٥	√		
٢٤	القارئ الصغير	٤٧		√	

م	العنوان	رقم الصفحة في الديوان	الوظائف المتحققة في العنوان		
			العينية	الوصفية	الإغرائية
٢٥	الكرة	٤٨	√		
٢٦	الفرة	٥٠	√		
٢٧	سقي	٥٢	√		√
٢٨	الأسرة تعمل	٥٤	√	√	
٢٩	مكتبتي الصغيرة	٥٦		√	√
٣٠	في حديقة الحيوان	٥٧			√
٣١	ازرع ليأكلوا	٥٩	√	√	
٣٢	يا بيتنا الثاني	٦٠	√		√
المجموع الكلي			١٨	١١	١٢
النسبة المئوية			٤٣,٩	%٢٦,٨	%٢٩,٢

الخاتمـــة

ومن هنا يمكن القول بأنَّ العنونة في أدب الطفل ذات أهمية بالغة لا تقلُّ في خطرها عن العنونة في خطاب الكبار، فالعنوان هو نصٌ موجزٌ وموازٍ للنص الرئيس، بل يكاد يكون المفتاح الذي لا بدَّ أنْ يحسن أدباء الطفل سبكه وهندسته، فالعناية بالنصِّ لا تكفي أدب الطفل، فالعنوان يقف على قدم المساواة مع النص، عناصر الجذب والتناسب والمرح والتفاؤل لا بدَّ أنْ تتوزع بالتساوي بين النص والنص الموازي له في أدب الأطفال.

وكل ما قرره علماء السيميائية من وظائف للعنوان نجدها بالخصوبة ذاتها في شعر الأطفال، ولم يخرج (قسم الأناشيد) من ديوان (كلمات خضر للأطفال) عن هذه الوظائف، ويمكن تفصيلها ودمجها بإتباع مبدأ توليد الوظائف بعضها عن بعض، أو باعتماد الاختزال في تعداد الوظائف، وتدعيم كل منها بأنماط على أساسها تتكون بين الوظائف نقاط تلاق واشتراك.

وإنْ كانت شاعرية سليمان العيسى وقدرته على استقطاب ذهن الطفل والتحليق به في أجواء المرح والسعادة سمة أشعاره الموجهة إلى الطفل، فإنَّ عناوين بعض هذه الأشعار لم تنل القسط ذاته من العناية ورسم ملامح الطفولة السعيدة ومرحها على حروفها.

وهذه العناوين مثلها مثل عناوين كثير من أناشيد الأطفال ودواوينهم لم تستغنِ عن التصنيف اللغوي للطفولة في عناوينها بخاصة في عنوان الغلاف، وهي خصوصيةٌ حتمتها طبيعة التأليف للطفل، ومثل هذه الخصوصية قد تدفع بالشعراء إلى استخدام بعض المفردات التي يظنونها مقاربة لعالم الطفولة من مثل: الإشارة إلى الصغر، وضآلة الحجم، إلَّا أنَّ العيسى قد تعامل مع هذه الفكرة– أحيانًا – بذكاء حين أورد هذه الألفاظ مقرونة بما يُذكي ثقة الطفل بنفسه ويشعره بمماثلة الكبار في ممتلكاتهم وسعة اطلاعهم.

ويمكن القول: إنَّ كل ما نصَّت الدراسات والبحوث في مجال أدب الأطفال وثقافته على توافره في النصوص من شروط وتناسب ووسائل جذب وتشويق تنسحب كذلك على عناوين القصائد والأشعار في أدب الأطفال.

ولا يزال موضوع العنونة في أدب الأطفال يتطلب دراسات تطبيقية تُلقي بالضوء على سمات العنونة وخصائصها الفنية والنفسية المتفردة التي لابدَّ من مراعاتها في التعامل مع الطفل ومع ثقافته وأدبه.

المصادر والمراجع

أنيس، إبراهيم: *موسيقى الشعر العربي*، ط٤، بيروت، دار القلم، ١٩٧٢م.

بلعابد، عبد الحق: *عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)*، ط١، بيروت، الدار العربية للعلوم،١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

جاكبسون، رومان: *قضايا شعرية*، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنوز، سلسلة المعرفة الأدبية، ط١،

الـــــــدار البيضـــــــاء، دار توبقال، ١٩٨٨م.

الحديدي، علي: *في أدب الأطفال*، ط٦، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٢م.

حسين، خالد: "*خطاب العنوان واشتغالات القراءة الجدلية ومستويات التركيب*" *مجلة* الرافد، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة. العـــــدد (١٨٨) (١٤٣٤هـ-٢٠١٣ م).

الحمداوي، جميل: *"السيموطيقيا والعنونة"* مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد٢٥، العدد(٣) (١٩٩٧م).

رماش، عائشة يوسف: "*شعرية العنوان في القصص الموجهة إلى الطفل*" مجلة جامعة دمشق، المجلد ٢٨، العدد(٢)، ٢٠١٢م.

زهران، حامد: *علم نفس النمو*، ط٤، القاهرة - عالم الكتب، الرياض - مكتبة العبيكان، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

شبلول، أحمد فضل: *جماليات النص الشعري للأطفال*، ط١، القاهرة، الشركة العربية للنشر،١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

شحاتة، حسن: *قراءات الأطفال*، ط٢، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.

صالح، عبدالرحيم: *تطور اللغة عند الطفل وتطبيقات تربوية*،ط١، عمَّان، دار النفائس، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

عبدالقادر، رحيم: "*وظائف العنوان في شعر مصطفى الغماري*" ، مجلة المَخْبَر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، قسم الأدب العربي كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، العدد(٤)، ٢٠٠٨م.

العيسى، سليمان: *كلمات خضر للأطفال*، ط١، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٥م.

الغذامي، عبدالله محمد: *الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريح*، ط١، جدة، النادي الأدبي الثقافي- ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

قطوس، بسام موسى: *سيمياء العنوان*،ط١، عمَّان، وزارة الثقافة، ٢٠٠١م.

قناوي، هدي محمد: *الطفل وأدب الأطفال*، ط١، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٤م.

- *أدب الطفل وحاجاته وخصائصه ووظائفه*، ط١،الكويت، الفلاح، ٢٠٠٣م.

نجيب، أحمد: *أدب الأطفال علم وفن*، ط١، القاهرة، دار الفكر العربي ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

الهيتي، هادي نعمَّان: *أدب الأطفال فلسفته، فنونه، وسائطه*، د.ط، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، بغداد - دار الشؤون الثقافية، ١٩٧٧م.

يعقوب، غسان: *تطور الطفل عند بياجيه، د.ط، بيروت*، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، ١٩٨٢م.